

النحو العربي وأصالته عند عبد الرحمن حاج صالح

"The Arabic Grammar and Its Authenticity According to Abdel Rahman Hajj Saleh"

طالبة دكتوراه / بوتمجيت دعاء
الأستاذ الدكتور / فروم هشام

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف.
مخبر تعليمية اللغات والتواصل في ظل التكنولوجيا الحديثة، جامعة الطارف
d.boutemedjet@univ-eltarf.dz
ferroum-hicham@univ-eltarf.dz

تاريخ النشر: 2026/03/15

تاريخ القبول: 2026/11/07

تاريخ الإيداع: 2025/10/10

ملخص:

تشكل اللغة العربية بنحوها رافدا من روافد الفكر الحضاري؛ باعتبار النحو فيها أهم علومها، من تبخر فيه اهتدى إلى جميع العلوم؛ في هذا المقال تطرقنا للنحو العربي؛ نشأته فاتخذنا بعض من أعلامه نماذج للتعرف على إرثه أصاته؛ فانصب تركيزنا على الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ لتتوسع لنا الرؤية وتمتد إلى خليل عصرنا عبد الرحمن حاج صالح الذي جعل من النحو العربي والنظرية اللغوية العربية الهيكل الذي بنى عليه الصرح اللساني العربي الحديث.

الكلمات المفتاحية: النحو العربي، الخليل بن أحمد الفراهيدي، عبد الرحمن حاج

صالح، الأصالة، المدونة اللغوية

Abstract: The Arabic language, through its grammar, serves as a vital source of civilizational thought, considering that grammar is one of its most important sciences. Those who delve into it find guidance in all other fields of knowledge. In this article, we addressed Arabic grammar, tracing its origins and highlighting some of its prominent figures as examples to understand its early developments. Our focus was particularly on Al-Khalil ibn Ahmad Al-Farahidi, which allowed us to expand our perspective and connect it to our contemporary scholar, Abdel Rahman Hajj Saleh, who has

established Arabic grammar and Arab linguistic theory as the foundation upon which he built the edifice of modern Arabic linguistics.:

;
key words: Arabic Grammar, Al-Khalil ibn Ahmad Al-Farahidi, □
Abdel Rahman Hajj Saleh, Authenticity, Linguistic Corpus.

مقدمة:

من خلال مقولة "بعث القديم عبر إحياء المكتسب؛ استطاع عبد الرحمن حاج صالح دراسة التراث العربي القديم واستقراء مقولات النحو العربي من منظور علمي يستدعي التعمق في التركة اللغوية التي تركها الرعيل الأول من فصحاء العرب؛ فالعرب قديما أولت للنحو أهمية كبيرة إذ ألقت حوله الكثير من الكتب ولعل أولها الكتاب لسيبويه؛ والدراسات التي قدمها الخليل بن أحمد الفراهيدي في هذا العلم تجعل منه البحر الذي يهتدى به إلى جميع العلوم؛ ونظرا لما قدمه العرب من قواعد وأقوال ونظريات نحوية بقت صامدة لقرون عديدة حتى جاء من أعطى لها حقها من خلال العكوف على قراءتها قراءة نقدية موضوعية بعيدة كل البعد عن التحيز فعبد الرحمن حاج صالح لم يكن حكما ولا جالدا ولا حتى متعصبا للتراث العربي؛ بالعكس لقد أظهر لنا قيمة المدونة اللغوية التي تركها الأسلاف والتي توارثتها الأجيال جيل بعد جيل بموضوعية تامة، دون نسيان التطرق إلى أهم المناهج والنظريات الغربية فموسوعيته مزجت بين القديم والحديث إلا أنه كان مؤمنا أنه يمكن له من خلال ما قدم لنا من دراسات لغوية في قرون مضت بناء صرح لساني عربي ونظرية لغوية أصيلة كان مفتاحها العربية وعلومها عامة وعلم النحو بخاصة؛ فكتبه ومؤلفاته جاءت لتبرهن على صحة النحو العربي الذي تركه عباقرة العرب، ونفي أي ادعاء لا أساس له من الصحة حول تأثره بالمنطق الأرسطي؛ فتمكّن من قراءة فكرية إبداعية من خلال حسّ النقدي وتمكّنه من الأصول المعرفية والعلمية- أمّهات الكتب-. إن الطرح الابستمولوجي للدراسات اللغوية والنحو العربي يفرض علينا دراسة العلم من جذوره أي كما سمعه النحاة من أفواه العرب الأقحاح الخالص؛ فتطرّقنا إلى تقديم الإرهاصات الأولى لنشأة علم النحو وكيف أسست حوله مدارس جعل روادها وأعلامها من خلالها النحو العربي علما قائما بذاته له موضوعه، مصطلحاته ومنهج قويم يستند إليه لياخذ بنا البحث إلى جزء من دراسة عبد الرحمن حاج صالح لهذا النحو وكيف دافع عنه وأثبت أصالته

وفي هذا الصدد نطرح الإشكالية الآتية:

هل تمكّن حاج صالح من خلال ما أوتي من دقة وموضوعية وملكة عقلية أن يثبت أصالة النحو العربي والدفاع عن مشروعيته؟

هل استطاع أن يعطي للتراث حقّه والإبداع في تأصيله؟

أهمية الموضوع: التراث هو الأرضيّة الصّلبة التي نرتوي من مشاربها؛ باعتباره حصيلة لما مضى من مخلفات تركها لنا عباقرة اللّغة، ولعلّ النحو العربي أهم ما قدّم في التراث اللّغوي العربي؛ حصرنا أهميته في قول الشّافعي من تبخّر في النحو اهتدى إلى جميع العلوم؛ ممّا جعل حصنه صامدا لقرون طويلة مضت، جعلت من عبد الرحمن حاج صالح يطمح لدراسته وبناء نظريّة لغوية عربيّة أصيلة من رحمه.

التراث اللّغوي العربي:

التراث هو كلّ ما ورثناه من قيم وآداب وفنون؛ كلّ ما قدّمه الإنسان منذ القدم أو تركه الأسلاف والأجداد للأجيال القادمة؛ إنّ تراث الأمم حافل بالدراسات اللّغويّة؛ فنجد الحضارة الهنديّة لها من التراث ما يعلي شأنها سواء كان تراثا دينيا أو لغويا وكذا الحضارة الإغريقيّة؛ لها من التراث اللّغوي ما بقي متداولاً لحدّ اليوم سواء كان ذلك التراث لغويا محضاً أو تتخلّله المناهج العقلانيّة والفلسفة الأرسطيّة وغيرها، والأمر نفسه عند علماء العربيّة فقد تركوا لنا مدوّنة لغويّة عظيمة ليس لها مثيل؛ "فالتراث عنوان على حضور الأب في الابن، وحضور السلف في الخلف، وحضور الماضي في الحاضر".¹ قيمته لا يمكن اختصارها في بضع ورقات بل الأمر أكبر من ذلك؛ إنّ مدوّنة علميّة لغويّة؛ أخذ أصحابها قرون طويلة في جمعها و تدوينها والتحقّق من صحتها وجدتها وأصالتها..

قد توجّه عبد الرّحمان حاج صالح لقراءة التراث العربي الأصيل ووصفنا إياه بالأصالة يدلّ على أنّ التراث العربي ليس على درجة واحدة من الأصالة والإبداع؛ ولوعيه بقيمة هذا المنجز العربي؛ بحث في كنهه لا حباً في القديم ولا محافظة لأجل المحافظة؛ إنّما إدراكاً منه بطبيعة الفطرة التلقائيّة التي أحدثها الرّغيل الأوّل، وأعني بهذا سيوبه والخليل وشيوخهما وكل من عاصروهما في تاريخ الدّرس اللّغوي؛ فالتراث العربي الأصيل هو التّركة اللّغويّة التي خلّفها العلماء الأوّلون الذين عاشوا زمن الفصاحة اللّغويّة العفويّة وشافهوا فصحاء العربيّة الأقحاح الخلّص، وقاموا بتحريّات ميدانيّة واسعة النّطاق للحصول أكبر مدونة لغويّة يشهدها التّاريخ الإنساني واللّغوي، فتمكّنوا بهذا من ضبط أنجع الطّرق التحليليّة لوصف المحتوى اللّغوي لهذه المدوّنة، ثمّ استنباط القوانين النّحويّة والصّرفيّة والبلاغيّة منها مع تعليل منطقي عجيب بعيد كل البعد عن ما ادّعاه المتأخرون بتأثر العرب والنحو بالمنطق اليوناني الأرسطي، فصاغوه صياغة رياضيّة ممّا لا يقلّ قيمة عمّا هو موجود الآن في ميدان العلوم اللّسانيّة² فتمتّع العرب بدقة الموضوع والعمق المنهجي

والوعي اللغوي في بناء صرح لغوي متين من أصغر عنصر في اللغة وهو الصوت إلى أكبره وهو النص والخطاب

عُرف أنّ البحث اللغوي سابق في التراث العربي؛ إذ بدأ مع قيام الحركة العلمية بعد ظهور الإسلام؛ فنشطت معه في كافة مجالات اللغة خدمة للنص القرآني؛ فهذا التراث على شجاعته، نقطة انطلاقه كانت لدافع ديني غايته التوحيد من خلال الحفاظ على اللغة باعتبارها الوسيلة الأمثل، واعتبارها أخص خصائص الإنسان، وقيمتها ارتبطت بقداسة القرآن الكريم؛ فقد كان هذا المستجد في البيئة العربية دافعا قويا للاهتمام بخ وإمعان النظر في طياته؛ لاسيما أنّه جاء جليلا من حيث فصاحة ألفاظه ومتانة نظم عباراته؛ فكان بهذا السبك والتماسك اللغوي معجزا؛ خاصة وأنه تحدّى العرب في كلامهم -براعتهم اللغوية-

كما هو معروف أنّ بداية الدرس اللغوي العربي كانت من أجل محاولة التخلّص من مشكلة اللحن والتحرّيف الذي أصاب العربية حين اختلاط الفرس والأعاجم بأهلها؛ فبدأ العرب بوضع قواعد تقوم ألسنة العجم وتحافظ على فصاحة أهل العربية وتصون القرآن الكريم من التحريف والوقوع في اللحن.

البحث النحوي العربي:

لقد كانت العرب تنطق على سجيّتها الفصحى، ولا تحتاج إلى علم كي يقوم لسانها؛ فقد ورثت هذا الميراث اللغوي أبّا عن جد؛ ميراث دم ونسب لا تجربة وميران، وقد كانت تتباهى بفصاحتها أمام سائر الأمم، وظلّت العرب على هذه الحال إلى أنّ أظهر الله الإسلام على سائر الأديان؛ فاقتحم جميع أنحاء العالم، فدخل الناس فيه أفواجا من أعاجم وفرس...فاختلط بهم العرب فمس لغتهم الفساد وأصيب اللسان العربي بالعجمة فاعتل الكلام في موطنه، وهذا أدّى إلى فتور السليقة وضعف البديهة؛ فصاروا يرفعون المنصوب وينصبون المرفوع ويجرّون ما لا يجوز جرّه، فبرزت بوادر البحث عند عامّة الناس وخاصّتهم؛ ممّا دفع بعلماء العرب إلى تدوين اللغة من خلال وضع علم تعليمي له من القواعد ما يضبط أواخر الكلم، ويبين عن المعاني المقصودة والصحيحة، كما يعين على أداء القرآن الكريم أداء صحيحا وسليما.

دور السليقة في نشأة علم النحو:

كانت العرب قديما تعتمد على سليقتها وعلى ما جُبلت عليه؛ يقول ابن جني عن أبي حاتم السجستاني "قرأ عليّ أعرابيّ بالحرم طيبي لهم وحسن مأب، وقلت طوبى، فقال طيبي، فلمّا طال

عليّ، قلت: طو، طو، قال: طي، طي؛ أفلا ترى إلى هذا الأعرابي... لم يؤثر فيه التّلقين... وما ظنّك به إذا... تساند على سليقته في اعتماده على الطّبع والسّجّية في التّلفّظ"³

فقد كان العرب يرفعون الفاعل وينصبون المفعول به على السّليقة والفطرة، حتى حدث لحن في الآية الكريمة؛ قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ»⁴؛ إذا قُرئت ورسوله بكسر اللّام؛ فاللّحن هنا مسّ حركة الكلمة في أحوالها الإعرابية ممّا أدّى إلى خلط في المعنى؛ ففي الآية الجبر يقلب المعنى ويحيله عن مساره... بينما اللفظ مرفوع على الابتداء؛ والتّقدير: إِنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ بَرِيٌّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ؛ وهذا يظهر لنا حاجة العرب الشّديدة إلى علم النّحو في "ضبط المسار اللّغوي وتقرير قواعد تنتظم في قوانين قياسية من استقرار دقيق للتراكيب والكلم وأوضاعها الإعرابية"⁵

إرهاصات نشأة علم النّحو العربي:

لجأ العرب إلى إيجاد سليقة أخرى بعيدة عن الطّبع والفطرة؛ فأخضعوا اللّسان العربي لسليقة القاعدة، فأوجدوا لنا علم النّحو الذي اعتبر مقياساً ومقوماً للغة العربيّة ومحافظة على كنه النّص القرآني وجوهره؛ فالتقى ما هو لغوي بما هو ديني لينشأ لنا علم النّحو؛ وهذا ما يؤكّده عبد القاهر الجرجاني في قوله "ألم تر أنّ هناك علاقة كبيرة بين علم الإعراب والمعنى فتجده يؤكّد على أنّ معرفة كنه الآيات القرآنيّة وفهم مقاصدها مرتبطان باتقان العربيّة وأساليبها"⁶

فكما وصل إلينا من كتب التاريخ أنّ المصحف الشريف كان يعوّزه الشّكل والتّنقيط وبأمر من الإمام علي- كرم الله وجهه- لأبي الأسود الدّؤلي وُضعت اللّبنات الأولى لعلم النّحو؛ إذ ورد في كتاب الفهرست لابن النّديم، قول أبي الأسود الدّؤلي في إملائه على أحد الكتّاب، قوله: "خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد؛ فإذا فتحت شفّتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا أضمتها فاجعل النّقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما بهما، فاجعل النّقطة في أسفله؛ فإن اتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين..."⁷ فبصنيعه هذا - رسم العربيّة ونقط الإعراب - تبعه كوكبة من تلاميذه من قرّاء الذّكر الحكيم "نصر بن عاصم، اللّيثي الكناني، عبد الرّحمان بن هرمز، يحيى بن يعمر... وغيرهم؛ واعتبرت جهودهم في نقط المصاحف عملاً استفاد منه الخليل بن أحمد الفراهيدي في وضع علامات الإعراب.

إنّ هذا العمل كان الحجر الأساس في بناء صرح علم العربيّة ممّ أدّى إلى ميلاد علم النّحو والصّرف كعلمين لهما موضوع؛ فالصّرف يعتني بأحوال الكلم المفردة من حيث بناؤها وتصريفها واشتقاقها

وما يطرأ عليها من تغيير؛ فإعلال وإبدال... والنحو يُعنى بأحوال الكلم داخل التراكيب والجمل وما يطرأ من تغيير على حركاتها ومواقعها الإعرابية؛ ولكلّ منهما مصطلحاته الخاصة به ومنهجه المتبع.

علماء النحو العربي ومدارسه:

لقد تباينت الآراء وتعددت المرجعيات الخلفية للنحويين العرب؛ فانتهجوا مسالك عدّة في البحث النحوي باعتمادهم على أذواقهم وإعمالهم لعقولهم والملاحظة المباشرة، والوصف والاستقراء؛ فكان لهم من الجهود والآراء ما قد يفضي إلى التأسيس إلى مدارس نحوية؛ والحديث عن هذه المدارس حديث عن تاريخ هذا العلم اللغوي وأعلامه الذين أسهموا في وضع لبناته الأولى، وما نُقل عن كل منهم من رأي وأثر؛ قبل أن تبلور مائله وتُضبط مصطلحاته أواخر القرن الثاني للهجرة على أيدي نحويي البصرة وما بذله النحويون من جهود في ذلك مع ترجمات لهم موجزة، ثم الانتقال إلى تتبع تاريخ النحو في الكوفة وملابسات نشأته وأعلامها وبعض آرائهم وأوجه ومظان الخلاف بينهم وبين نخاة البصرة، وغيرها من المدارس النحوية؛ "فتاريخ البحث النحوي العربي طويل يمتد من منتصف القرن الأول من الهجرة أي من عصر أبي الأسود الدؤلي وتلامذته إلى عصر الخليل وشيوخه وتلامذته، ثم نخاة القرنين الثالث والرابع إلى زمن ابن مالك وابن هشام وابن عقيل والسيوطي... ومن اجتهد اجتهدهم ما بين القرن السابع والعاشر للهجرة إلى زماننا هذا"⁸

تجمع العديد من الروايات أن "البداية كانت مع البصرة من بداية القرن الثاني للهجرة؛ إذ اكتملت معها أسس النحو والصرف ومسائلهما في كتاب سيبويه"⁹، وكانت بهذا الصنيع مهذا لنشأة النحو العربي؛ إذ احتضنت النحو قرابة قرن قبل أن تشتغل به الكوفة، وهي التي شيدت صرحه ورفعت أركانها؛ ذلك أن الكوفة كما روي في كتب التاريخ واللغة أولت عناية بالرواية والشعر. وبهذا الفعل اشتد الخلاف بينهما في القضايا النحوية وزادت حدته؛ "فاتخذت البصرة اتجاهها فكرياً فلسفياً اعتمد فيه على العقل والقياس، ومقارعة الحجّة بالحجّة"¹⁰ فكانوا أكثر جديةً، أقوى عقلاً، منهجهم أكثر تنظيماً، فلم يأخذوا العلم من ما هبّ ودب بل كانوا عقلايين واعين بما هو بصدد دراسته، وفي اعتمادهم على الشواهد الموثوق بها؛ فأخذوا من قيس، تميم، وأسد، الحجاز...

إلا أنها اشتركت مع الكوفة في عنايتهم ودراستهم للكتاب؛ كلٌّ حسب طابعه الخاص؛ وقد عرض العلماء الوجهتين المتقابلتين في المدرستين؛ حتى أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري ألف في ذلك كتاباً طرح فيه أهم المسائل التي تعرض لها البصريون والكوفيون، ووسمه بالإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين".

قبل الحديث عن الجهود المبذولة في المدارس النحويّة؛ حاولنا تقديم بعض الومضات حول عظمة علم النحو ومكانته في الفكر اللّغوي القديم؛ باعتباره مصحّحاً ومدقّقاً ورقبياً على اللّغة العربيّة؛ إذا نجح المخاطب أو الباحث في إتقانه وفهم مكانه وجوهره استطاع معرفة باقي العلوم اللّغويّة الأخرى؛ إذ تعرف به الأصول والفروع، وتقهم به المعاني والمباني؛ وفي مقام المدح يقول الجرجاني: "النحو في الكلام كالمّح في الطّعام؛ إذ المعنى أنّ الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلّا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والتّرتيب الخاص، كما لا يجدي الطّعام ولا تحصل منه الفائدة المطلوبة منه وهي التّغذية ما لم يصلح المّح"¹¹

ويؤكّد ابن خلدون على وظيفة النحو الحقيقيّة "إنّ الأهمّ المقدم منها هو النحو؛ إذ به يتبيّن أصول المقاصد بالدلالة فيُعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ على الخبر"¹² فلولا علم النحو لجُهل أصل الفائدة ولا وقع أهل العربيّة وغيرها في الإشكال واللّبس والإيهام والغموض.

علماء النحو كثير ولا يكفي المقام هنا للحديث عنهم وعن جهودهم النحويّة؛ فأشرنا في البداية إلى تمسّك ابن أبي إسحاق الحضرمي بالقواعد النحويّة مستشهدين في ذلك بقول ابن سلام الجمحي "كان أوّل من بعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل؛ إذ جعله بهذا القول الواضع الأوّل لعلم النحو، كما أكّدت كتب التّاريخ واللّغة أنّه حمل ما لم يُسمع من العرب على ما سمع منهم، وأنّه استعان بالتّعليل لتأكيد هذا العمل وتثبيتته في أذهان الدّارسين"¹³.

ألّم نر في تمسّك أحد كبار علماء اللّغة في الوطن العربي بالقديم ونهله من مصادره والارتواء من مشارب علمائه؛ إنّ تعلّق عبد الرحمن حاج صالح بالتّراث العربي والاعتكاف على دراسته ليس سوى دليلاً على أصالة هذا الفكر وقيّمته العلميّة ويستحضرني في هذا المقام الإشارة إلى النحوي العربي يونس بن حبيب؛ إذ كانت له في النحو آراء وأقوال "جعلته راويّة من رواة اللّغة والغريب؛ فنجد اسمه قد ذكر في كتاب سيبويه مراراً وتكراراً، وبلغ ما نقل عنه نحو مئتي نقل"¹⁴

لنتّجه بالحديث عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي ذاع صيته وعلت آراؤه، وكان له من المكانة ما جعل صنيعه يبقى صامداً إلى قرون عديدة، يتعاقبها جيل بعد جيل؛ قال فيه ابن المقفّع "رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه"¹⁵؛ فبغناء تفكيره ودقّة استنباطه وكيفيّة استخلاصه للمفاهيم، وذوقه... جعلت كلّ من يقف على علم العروض يبقى مذهولاً كيف استطاع وضع علم بهذه التّشكيكة وهذا الضّبط؛ فكانت مبادرته الأولى مع علم العروض فعلم الأصوات من خلال معجمه العين، وخطوة بخطوة بنى ورفع صرح النحو، وعلى هذه الحال "كان الخليل يتمتّع وهو يلتبس دروب

العلم؛ فكان لا يستهويه متاع الدنيا وملذاتها بقدر ما كان يعنيه المتاع العقلي الذي استطاع من خلاله فتح أبواب العلوم اللغوية.¹⁶

فإذا كان السبق النحوي عند أبي إسحاق الحضرمي وأتباعه؛ فإن الخليل هو من رسم مساره، ووضع مصطلحاته وأرسى قواعده؛ "على يديه خلق النحو سوياً كامل الأصول والفروع... فرفع القواعد والأركان بمصطلحات وقواعد مضبوطة، والنظرية التي أقام عليها سيبويه كتابه هي من وضع الخليل" نظرية العامل وما تعلق بها من مصطلحات وقضايا؛ وهذا ليس إنكاراً لجهود سيبويه في إكمال هذا العلم وتتمته، ولكن واضح تخطيطهما ورأسم لوحتهما إنما هو الخليل.¹⁷ فبفضل ذكائه وبراعته في الوصف والتحليل استطاع التفقه في أسرار العربية وعلومها معتمداً في هذا العمل على السماع والتعليل ثم القياس؛ فكان ينقل عن قرأ الذكر الحكيم وفصحاء العربية الأقحاح الموثوق بعربيّتهم وفصاحتهم. ليسطع نجم النحو وتشرق شمساه مع سيبويه من خلال ما أبدعه في الكتاب؛ إذ أسس مع شيخه نظرية لسانية عربية اعتبرت بمثابة المدونة اللغوية التي قام عليها صرح العربية ككل والنحو العربي على وجه الخصوص، ساهم في نشأتها عباقرة التراث العربي في زمن الفصاحة.

الدّرس النّحوي العربي عند عبد الرحمن حاج صالح:

ساهم حاج صالح في إرساء أسس جديدة لفهم النحو العربي، حيث استند إلى التراث اللغوي العربي القديم ولكنه قدمه بطريقة حديثة. هذا الجمع بين الأصالة والمعاصرة جعل من أعماله مرجعاً مهماً للباحثين؛ باعتبارها حجر الزاوية في دراسة النحو العربي الأصيل من خلال التحليل العميق للتراكيب النحوية والكشف عن المعاني المضمرة التي تحملها هذه التراكيب. حيث قدم إسهامات قيمة أثرت بشكل ملحوظ في حركة الدرس النحوي. لقد اهتم بمسائل اللغة واستنبط الأحكام من النصوص، مما جعله يتناول موضوعات متعددة في كتبه ومؤلفاته، مؤكداً على أهمية النحو في فهم أسرار التراكيب ودلالاتها. فلم يغفل عن أي موضوع يستحق الدراسة، حيث اجتهد في طرح مسائل تشكّل ذخيرة لغوية نحوية غنية. تتميز أعماله بالاستقصاء والتعمق في التحليل، والدقة والحيادية في قراءته للتراث النحوي. وعياً منه بأهمية هذا العلم، درس اللغة وحلّلها ليصل إلى المقاصد من خلال ما يضمّره السياق وما تحمله التراكيب النحوية من معاني خفية من خلال ما درسه في ثنائية الوضع والاستعمال في كتابه الخطاب والتخاطب. ومن خلال وضعه للنظرية الخليلية التي استطاع عبرها التأصيل للنحو العربي، ونفي الادعاء الذي لا صحة له حول تأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني الأرسطي. لذا، فإن التأصيل الذي قام به يعكس جوهر التراث وحقيقته، مما يجعل أعماله مرجعاً مهماً للمهتمين بالدراسات اللغوية..

يقول التّواتي "أمّا في العصر الحديث فقد نبغ في الدّراسات اللّسانية علم فذ من أعلام الجزائر؛ وهو العلّامة حاج صالح؛ إذ انتهج نهج الخليل بن أحمد الفراهيدي واقتفى أثره الحار على الحافر دارسا فكره النّحوي، فعكف سنين طويلة في دراسة النّحو الخليلي والكتاب لسبويه درسا وتحصيلا؛ ليخرج لنا بنظريته الجديدة الفذة التي بيّن من خلالها أنّ الثّراث العلمي اللّغوي العربي أصيل ثريّ بالأفكار الأصيلة والتّحليلات العميقة والدّقة الموضوعيّة"¹⁸؛ فاهتبر بهذا الصّنيع خليل عصرنا الذي أنار درب الدّراسات اللّغويّة العربيّة من خلال قراءة الثّراث العربي قراءة نقدية ربط فيها بين الموسوعة اللّغوية التي تركها النّحاة العرب القدامى وبين ما قدّمه الغرب حديثا.

فقد جاء ليعطي لكلّ ذي حقّ حقه من خلال نظرية لسانية عربيّة جديدة إلّا أنّها أصيلة فيها شيء من الإبداع وفق دراسة تحليليّة نقدية صارمة تتحرى الدّقة والموضوعيّة؛ إذ تجاوز من خلال نظريته الفاحصة الثّاقبة الانبهار بالمنتوج الغربي، فاستطاع بحمولته الثّقافيّة وتمكّنه من قراءة الأصول المعرفيّة والمنابع العلميّة وفي نفس الوقت لاطّاعه على ما قدّمه الغرب جعله يدرس النّحو العربي دراسة نقدية بناءة أعادت للثّراث شأنه متماشية في منهجها على ما هو معاصر وحديث؛ فكانت بهذا قراءة فكريّة تستدعي التّمحيص والتّحري.

بداية؛ يقول عبد الرّحمان حاج صالح في قضية الأصالة والإبداع وربط بعض الباحثين اللّغويين الإبداع بالمعاصرة والأصالة بالثّراث "فكان هؤلاء المثقّفين يجعلهم الأصالة في مقابل المعاصرة لا يتصوّرون هذه الأصالة إلّا بالرجوع إلى القديم؛ فالأصيل في الواقع هو المبدع الذي يأتي بشيء لم يسبق إليه مهما كان الزّمن الذي يعيش فيه"¹⁹؛ والأصالة عنده ألاّ ننجرّ وراء نظريات الغير ونهمل بها وأن نبتعد عن التّقليد سواء كان المحتذى به منجزا غربيا أم فكرا عربيا.

فحاول فهم القضايا اللّغويّة التي تركها الأوّلون أكثر من أربعين سنة، تتبّع فيها آراء الخليل وأتباعه من الرّعيّل الأوّل من النّحاة، وقد كان ذلك نابعا "من إيمانه بوجود نظرية دقيقة في أصولها ومفاهيمها في النّحو العربي الأصيل فيما تركه لنا أمثال الخليل وسبويه ومعاصريهما وشيوخهما؛ ويتّضح وذلك بإعادة قراءة الثّراث ليس على ضوء النّظريّات الحديثة فقط إنّما بدراسة إبستمولوجيّة معرفيّة دقيقة لمفاهيم النّحاة وتصوّراتهم دون إسقاط أي تصوّر آخر لتصوّر النّحاة العرب المتأخّرين أو تصوّر الغربيين عليها"²⁰ والقصد بدراسة إبستمولوجيّة للنّحو العربي؛ فهم المعرفة والمعرفة العلميّة في مجال النحو العربي. تُعنى هذه الدراسة بتحليل الأسس الفكرية والفلسفية التي تقوم عليها قواعد النحو، وتفسير كيفية تشكّل هذه المعرفة وتطورها عبر الزّمن. والأبستمولوجيا أساس في التّأصيل لأيّ علم أو معرفة.

يقول الأستاذ مؤكداً على الطابع التأصيلي للنحو العربي في الطرح الاستمولوجي والطابع العلمي المتميز به "أنَّ النحو العربي قد وضع على أسس إستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنوية، وخصوصاً في المبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاته، وليس هذا فقط بل إنَّ الاختلاف كان في النظرة إلى البحث في اللغة نفسه وتدوين الكلام من أجل التحليل"²¹

فقد بذل حاج صالح جهداً كبيراً للحفاظ العربية وإثرائها؛ فكان يصرّ على المعرفة بالتمّاذج القديمة؛ ولولعه الشّديد بالنحو العربي وإطلاعه الواسع على نظريات الغرب وقراءاته الكثيرة المتواصلة للتراث مكنته من اكتشاف عناصر الأصالة ومقوماتها في درس النحوي العربي، فتميّزت دراساته بالطرح الموضوعي والمنهجي لا يشوبها أي تحيّز

وفق الأستاذ صالح في معالجة قضايا النحو العربي وإخراجه من دائرة التعليمية الضيقة ونفى عنه أيّ ادعاء حول تأثره بالمنطق الأرسطي وخلّصه من الجانب التأملي الفلسفي الذي أضفاه المتأخرون عليه؛ فكان له دور في كشف الخليل وسيبويه في انطلاقهما من نظرية تجريدية عملية علائقية أثبتت صحتها"²²

تعجّب الأستاذ من كل باحث أو عالم أو لغوي سواء كان عربياً أم غربياً جرّد النحو العربي من الأصالة وجرّد العرب في حدّ ذاتهم من كل اجتهاد وعمل لغوي قاموا به؛ قائلاً: "والغريب المطلق أنّ أشهر هذه الآراء التي أبست لباس البحث النزيه هي التي تنفي كل طرافة للمناهج العربية في النحو؛ وتنكر أن يكون النحاة أخرجوا شيئاً جديداً لعجزهم على إتيان مثل هذا الصنيع المبتدع"²³

هذا القول يعبر عن استنكار الأستاذ للأفكار التي تقلل من قيمة النحو العربي وتنتقص من إسهام العرب في تطويره. فالأستاذ يتعجب من الباحثين أو اللغويين، سواء العرب أو الغربيين، الذين يزعمون أنّ النحو العربي ليس له أصالة أو إبداع، وأنّ النحاة العرب لم يقدموا شيئاً جديداً. ويرى أنّ هذه الآراء، رغم أنّها تبدو وكأنّها تستند إلى البحث العلمي النزيه، إلّا أنّها في الحقيقة تنفي قدرة العرب على الإبداع في مجال النحو وتقلل من شأن اجتهاداتهم اللغوية وهذه أوهام شائعة لا صحة لها.

فنجده قد دافع عن فكرة لم يول أيّ من الدارسين أهمية لها من حيث صحتها وخطئها فتلاها عنها الكثير؛ وهي "خلو النحو العربي لا سيما في القرنين الأول والثاني من النحو الأرسطي؛ حيث اضطربت الآراء وتشدّدت العقول بين مثبت ومنكر"²⁴؛ فوضع نظريته الخليلية كرد على كل من قال بتأثر النحو بالمنطق الأرسطي واستطاع إثبات ذلك بالحجّة والدليل

فبعد الرّحمن حاج صالح لا يطمئن للجاهز، فدرس وقرأ المدوّنة اللّغويّة التي تركها العرب القدامى "مظهرًا اطمئنانه لما رواه سيبويه وحجّته" السّماع ومشافهة فصحاء العرب؛ ويؤكد على أصالة النّحو العربي من خلال رؤية مفادها أنّه لم يأت أي باحث على الإطلاق بحجج مقنعة تناقض ما أتى به سيبويه من المسموع، ودعم كلامه بما جاء به بعض العلماء²⁵

بيّن حاج صالح أنّ العلوم الإسلاميّة البحتة قد امتازت عن علوم الأوائل في سرعة اكتمالها، وقد أجمع العلماء على حقيقة هذه الظّاهرة؛ ففي أقلّ من قرن خرج إلى الوجود نحو تام التّكوين سوي الخلق منسجم الأطراف، ونجده في كتاب سيبويه؛ وهذا ليس خرقاً للعادة إنّما هو خروج عن العادة المألوفة عند بعض النّاس، وأنّه ينبغي أن نحلّ هذه الظّاهرة محلّها من الظّاهرة الكبرى التي قلبت أوضاع العالم القديم²⁶ ولعل السّبب الرئيسي لنضج هذا العلم واكتماله هو ميلاده في حضن القرآن الكريم الذي أعجز العرب في كلامهم وتحداهم في بلاغتهم، فسرّعت صيانتها وحفظه من اللّحن في نشأة ونضج علم النّحو.

كما نجده يعارض ادّعاء النّحو بالمنطق اليوناني بأدلة أساسها؛ أنّ التّقسيم بين العرب واليونان من حيث الدّلالة مختلف كل الاختلاف إذ أسّس النّحو العربي من أجل غرض الإفادة بينما منطق أرسطو يهتم بالحكم فقط؛ قول الأستاذ "إنّ النّحو العربي قد أسّس على الغرض الذي منه خلّق الإنسان وهو الإفادة؛ فغرضه لغوي محض وهو بهذا بعيد عن المنطق اليوناني والمذهب الفلسفي الأرسطي"²⁷ فتقسيم النّحاة للكلم إلى اسم، فعل وحرف إنّما تقسيم أصيل أصالة النّحو والتّراث العربي ككل.

وقد فرّق بين منطق أرسطو والاستدلال العربي؛ من رؤية مفادها أنّ أرسطو بنى منطقته على الاشتمال؛ اندراج شيء تحت شيء وهذا ما قام عليه النّحو التّوليدي التّحويلي أمّا العرب فاستدلّواهم تقوم على حمل شيء على شيء لعلّة جامعة بينهما، ومن ثمّ يلحقه في الحكم؛ وهذا الفارق بين القياسين اليوناني والعربي؛ أساس لم يدركه إلا القليل²⁸

خاتمة:

من خلال ما سبق تقديمه ومن خلال ما قدمه العرب وأعاد حاج صالح قراءته والاستطلاع على كنهه وجوهره نخلص إلى:

أنّ الرّعيّل الأوّل من علماء العربيّة تركوا تراثاً لغويّاً عربيّاً أصيلاً؛ ورغم اختلاطهم بغيرهم من الأعاجم إلّا أنّهم حافظوا على تراثهم في حُضن القرآن الكريم؛ فكانت البداية لحماية القرآن الكريم من التّصحيف؛ ليخرجوا من بوتقة الدّين إلى تأسيس علوم لغويّة أثبتت أهمّيّتها في بناء مدوّنة لغويّة عظيمة بقيت صامدة طيلة قرون، ولعل أهمّها علم النّحو الذي استطاع من خلاله النّحاة العرب إرساء مقولاتهم ومقولات معاصرين وتقديمها في نظريّة لغويّة أعاد قراءتها الأستاذ حاج صالح ليُعرف مدى وعي العرب اللّغوي ومدى تعمّقهم في قواعد النّحو وإثبات أصالته غير نظريته وغير مؤلّفاته التي دافع من خلالها عن الادّعاء الخاطئ حول تأثر النّحو العربي بالمنطق الأرسطي بالحجّة والدليل

الإحالات والهوامش

1. ينظر: محمّد عابد الجابري، التّراث والحداثة دراسات... ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط3، 2006، ص: 24.
2. ينظر: محمّد صاري ملامح من الفكر اللّساني عند الدّكتور عبد الرّحمن حاج صالح "قراءة في بعض النّماذج" مجلّة المجمع الجزائري للغة العربيّة، ع25، جوان 2017، ص: 18. ينظر: عبد الرّحمن حاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة ج1، المؤسّسة للفنون المطبعيّة، الجزائر، 2007، ص: 169.
3. مصطفى إبراهيم، إحياء النّحو، لجنة التّأليف والنّشر، القاهرة، ط1، 1937، ص: 10.
4. سورة التّوبة، الآية: 3، ص: 187.
5. ينظر: فريّة توفيق، المصطلح النّحوي وتفكير النّحاة العرب، دار محمّد علي للنّشر، ط1، ص: 30.
6. ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلال الإعجاز في علم المعاني، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2001، ص: 63.
7. ينظر: ابن التّديم، الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1997، ص: 60.

8. ينظر: شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، مصر، ط7، دت، ص: 61.
9. ينظر: نفسه، ن.ص.
10. أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 2005، ص: 36-37.
11. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتاب العلمية، ط1، 2001، ص: 58.
12. عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار العودة، بيروت، 1988، ص 1 / 753-764.
13. ينظر: إسلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، دط، ص: 58.
14. ينظر: صلاح راوي، النحو العربي نشأته، تطوره، مدارسه ورجاله، دار غريب، القاهرة، 2003، ص: 149 وينظر، سيوييه، الكتاب ج1، ص: 11.
15. محمد بن الحسن بن عبيد الله الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص: 49.
16. ينظر: شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 31.
17. المرجع نفسه، ص: 34. وينظر حلمي خليل من تاريخ النحو العربي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ص: 31-32.
18. ينظر: التواتي بن التواتي، المدارس النحوية، دار الوعي، الجزائر، 2008، 138.
19. ينظر عبد الرحمن حاج صالح بحوث ودراسات في اللسانيات ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012، ص: 11.
20. عبد الرحمن حاج صالح، المدرسة الخليلية والدراسات اللسانية الحالية، بحوث ودراسات في اللسانيات ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012، 373.
21. حسن خميس سعد الملح، نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق، ط1، 2000، ص: 247.
22. التواتي بن التواتي، مداخلة بعنوان الخلفية المعرفية لجهود الدكتور صالح وتشومسكي، ملتقى الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن حاج صالح، مارس 2018، ص، 24.
23. ينظر: عبد الرحمن حاج صالح، النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب، الجزائر، ع1، 1964، ص: 76.

24. يجزم بعض الباحثين العرب المحدثين أنّ النحو العربي هو نفسه النحو الأرسطي "محمود السّعران، في كتابه علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي"، وفي مقابل هذا نجد الباحثة اليونانية فنسين تقول بأصالة النحو وتؤكد على الاختلاف الشديد بينهما...

25. ينظر: عبد الرحمن حاج صالح، السّماع اللّغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص: 260

26. ينظر عبد الرحمن حاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج 1، ص: 49.

27. ينظر: المرجع نفسه، ص: 55.

28. ينظر: المرجع نفسه، ص: 15.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن التّديم، الفهرست، تع: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1997.
2. أحمد مؤمن، اللّسانيّات النّشأة والتّطور، السّاحة المركزيّة، بن عكنون، الجزائر، ط2، 2005.
3. التّواتي بن التّواتي، المدارس النّحويّة، دار الوعي، الجزائر، 2008.
4. حسن خميس سعد الملح، نظريّة التّعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشّروق، ط1، 2002.
5. حلمي خليل من تاريخ النحو العربي دراسة ونصوص، دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريّة، مصر، 1995.
6. سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تع: محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، دط.
7. سيّبويه، الكتاب ج 1، تع: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1977.
8. شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، دار المعارف، مصر، ط7، د.ت.
9. صلاح راوي، النحو العربي نشأته، تطوّره، مدارس ورجاله، دار غريب، القاهرة، 2003.
10. عبد الرّحمن ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، دار العودة، بيروت، 1988.
11. عبد الرّحمن حاج صالح بحوث ودراسات في اللّسانيّات ج 1، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الجزائر، 2012.
12. عبد الرّحمن حاج صالح، المدرسة الخليليّة والدراسات اللّسانيّة الحاليّة، بحوث ودراسات في اللّسانيّات ج 1، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الجزائر، 2012.
13. عبد الرّحمن حاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة ج 1، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الجزائر، 2007.
14. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تع: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتاب العلميّة، ط1، 2001.

15. عبد القاهر الجرجاني، دلال الإعجاز في علم المعاني، تح: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2001.
16. قريّة توفيق، المصطلح النحوي وتفكير النحاة العرب، دار محمد علي للنشر، ط1، 2003.
17. التّوّاتي بن التّوّاتي، مداخلة بعنوان الخلفيّة المعرفيّة لجهود الدّكتور صالح وتشومسكي، ملتقى الجهود اللّغويّة لدى عبد الرّحمن حاج صالح، مارس 2018.
18. محمد بن الحسن بن عبيد الله الزّبيدي، طبقات النّحويين واللّغويين، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1984.
19. محمّد صاري ملامح من الفكر اللّساني عند الدّكتور عبد الرّحمن حاج صالح "قراءة في بعض النّماذج" مجلّة المجمع الجزائري للغة العربيّة، ع25، جوان 2017.
20. محمّد عابد الجابري، التّراث والحداثة دراسات... ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط3، 2006.
21. مصطفى إبراهيم، إحياء النّحو، لجنة التّأليف والنّشر، القاهرة، ط1، 1937.